أبو سمبل

عندما تصل إلى مطار أبو سمبل بالطائرة، قادمًا إليها غالبًا من أسوان، تفاجأ بأن هناك ثلاث أو أربع طائرات أخرى تصل معك في نفس اللحظة، وهذا معناه وجود حوالى ألف سائح زائر للمكان فى نفس الوقت! هذا دليل أكيد على انعدام التخطيط، فإن أى شخص لديه حد أدنى من المعرفة بالمكان، يدرك أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال، زيارة هذا المعبد الضيق من الداخل، لأكثر من مائتى زائر فى الوقت الواحد.

ثم عندما تخرج من المطار، ببطء شديد بسبب التزاحم على باب الخروج الضيق، فإنك تتعمد أن تتأخر قليلا، وذلك حيث إنك تحترم نفسك وتحترم كذلك المجموعة السياحية التى معك، وذلك حتى لا يضطر زبائنك سياح مصر، إلى التزاحم بالأكتاف للخروج من هذا الباب الضيق. وهكذا تكون آخر من يخرج من المطار وتكتشف عدم وجود أى سيارات لنقل سيّاحك إلى المعبد، وذلك بسبب عدم وجود سيارات أتوبيس كافية لنقل كل المسافرين على هذه الطائرات.

ثم إنك تقابل موظفًا من موظفى المطار، يقف على الباب، لينبه على كل المرشدين بضرورة العودة إلى المطار فى موعد أقصاه ساعة ونصف من الآن! وذلك حيث إن ميعاد الطائرة التى ستقلع عائدة بك إلى أسوان أنت ومجموعتك هو بعد ساعة ونصف! فتحاول أن تلفت انتباهه إلى أنك مضطر إلى البقاء أمام المطار مدة لا يعلم مداها إلا الله، وتقول له كذلك أنك لا تعلم بدقة ميعاد عودة الأتوبيس بك من المعبد إلى المطار، فيرد عليك بكلمة واحدة هى (هو كده).

عند وصولك إلى المعبد تفاجأ بوجود بوابات حديدية جديدة كان قد تم تركيبها خلال الشهر الماضى، وتفاجأ كذلك بوجود طابور طويل جدًا يمر منه الزوار واحدًا واحدًا، حيث يتم تفتيشهم تفتيشًا دقيقًا، خوفًا من أن يكون أحدهم حاملا لأية أسلحة، وتتساءل بينك وبين نفسك (ما الداعى لتفتيش نفس السياح عدة مرات عند إقلاع الطائرة من أسوان، ثم عند هبوطها فى أبو سمبل؟) مما يفقدك نصف ساعة أخرى.

ثم هناك الطريق الطويل الذى تقطعه مع سياحك على الأقدام، من بوابة دخول منطقة المعبد إلى أمام واجهة المعبد، حيث تقف مع مجموعتك السياحية لتقول لهم (ليس أمامنا الآن إلا نصف ساعة لزيارة المعبد)، يرد عليك أحدهم قائلا (ما هذا التخريف؟ هل دفعنا حوالى ما يساوى ألف جنيه مصرى لنشاهد المعبد خلال نصف ساعة؟) تحاول إقناعه بأن هذا ليس ذنبك، إنما هو ذنب مصر للطيران، فلا يقتنع. تكون النتيجة هى أن بعض سياحك عند العودة إلى المطار يتخلف عن العودة معك، وبذلك يخلق لك مشكلة حين لا تجده وسط مجموعتك، فتطير طائرتك عائدة بغيرك إلى أسوان، وتنتظر أنت فى المطار ثلاث أو أربع ساعات، حتى يحين موعد عودتك بمجموعتك على طائرة أخرى.

تعتقد سلطات المطار، وتعتقد شركة مصر للطيران، أنها بذلك تكون قد انتقمت منك وأغاظتك، أنت المرشد السياحى الذى لا يعرف شغله، وهم لا يدركون أنهم إنما يغيظون السياح، ويفقدونهم متعة الزيارة، ويضيعون عليهم ساعات طويلة من الانتظار فى صالات المطارات.

أنا أتساءل: لماذا لا تكون هناك جهة واحدة فقط مسئولة عن العملية التنظيمية الخاصة بزيارة معابد أبو سمبل، هذه الجهة تجمع بين سلطات مصر للطيران، والإدارة المحلية، ووزارة السياحة؟

إدفو

مشكلة مدينة إدفو هى الحناطير، فهناك المئات منها التى تجـوب المدينة فى اتجاهين محددين، إما من المراسى السياحية إلى المعبد، أو من المعبد إلى المراسى السياحية، المشكلة هـى أن هـذه الحنـاطير تحول رائحة المدينة كلها إلى رائحة براز وبول الخيول التى تقود تلك الحناطير، وأينما كنت فى تلك المدينة فإن تلك الرائحة تهل عليك. أنا لا أعرف لماذا لا يطبق نظام شديد فى مسألة جمـع فضـلات تلـك الحيوانات فى أكياس تعلق على ظهورها، أو على أفخادهـا، مثلمـا يحدث فى العديد من بلاد العالم السياحية التى تسـتعمل مثـل تلـك الحناطير (فينا مثلا)، حيث ما تزال تلك الحنـاطير وسـيلة انتقـال سياحية معروفة .

ثم إن مشكلة المرشدين السياحيين مع إدفو هى كذلك الحنـاطير، ولكن ليس بسبب رائحة روث البهائم، وإنما بسبب مشكلة التفاهم مـع (العربجية – المقطع جى بالتركية معناه صاحب الشىء أو صـاحب المهنة، فنقول مثلا بوهيجى وجزمجى وأجزجى وعربجى والمسـألة ليست فيها أية إهانة) التفاهم معهم صعب جدًا، فإذا كنت تعمل مرشدًا سياحيًا ولديك فى البرنامج زيارة معبد إدفو، فأنت فى محنة شـديدة! فعندما تخرج من المعبد بعد انتهاء زيارة سياحك له، لن تجـد أبـدًا العدد الكافى من الحناطير لنقل كل زبائنك معًا للعودة إلى المركـب، وأنت لا تستطيع أن تغادر المعبد بجزء من المجموعة، على أن يلحق بك جزؤها الآخر فيما بعد، فهذا لا يجوز وذلـك بسـبب مسـئولية المرشد المباشرة عن سلامة كل أعضاء مجموعته.

عندما يخرج المرشد من المعبد قد يكتشف اختفاء واحد أو أكثر من العربجيّة، وقد يكون السبب هو أنه فى طريق الذهاب إلى المعبد كان قد احتال على أحد السياح وحصل منه على مساعدة لوجه الله، مثلا ورقة بمائة جنيه، وحيث إن هذا المبلغ هو أكثر بمرات مما يكسبه هذا العربجي خلال يوم عمل، ففى هذه الحالة يكتفى هذا العربجى بهذا المبلغ كمكسب لهذا اليوم، وبالتالى يختفى بقية اليوم، وملعون أبو السائح وكذلك أبو المرشد الذى قد يضطره أحدهما إلى العودة إلى العمل.

أو قد يكتشف المرشد أن مجموعة العربجية الذين نقلوه هو وزبائنه فى الذهاب إلى المعبد موجودون الآن عند المرسى فى انتظار نقل مجموعة أخرى من السياح، وأنهم يرسلون إلى المرشد عربجية آخرين من أقاربهم (أولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم) وذلك حيث إن مهنة العربجة هى أكثر المهن انتشارًا فى المدينة، وذلك حيث إنها من أكثر المهن السياحية فى المدينة التى تدر عائدًا مجزيًا، وعلى المرشد فى تلك الحالة أن يكتشف بنفسه، وعلى مسئوليته وحده، وبدون مساعدة من أى شخص آخر، صلات القرابة تلك بين العربجية وأولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم، وذلك حيث إنهم لا يقولون أى شىء للمرشدين بشكل عام، ناهيك عن ذكر صلات القرابة تلك.

وقد يكتشف المرشد أن عربجيته الأصليين موجودون أمام المعبد، ولم يغادروه بتاتًا منذ أن نقلوا المرشد مع زبائنه من المرسى إلى المعبد، ولكن المشكلة هى فى الزحام الشديد الذى يتكاثف حول باب الخروج فى المعبد، حيث يتجمع أحيانًا فى قمم المواسم آلاف السياح، وكذلك مئات من الحناطير. مما يستحيل معه عثور أى شخص منهم على الآخر.

وقد يكتشف المرشد أن عربجيته الأصليين موجودون أمام المعبد ولكنهم يتجاهلونه، وعندما يلح المرشد فى الكلام مع أحد هؤلاء العربجية، الذى ينكر بشدة أية علاقة له بهذا المرشد، يأتى عربجى آخر ويجذب المرشد من كُمّ قميصه ويذكر له همسًا، أن عربجيته موجودون، ولكنهم غير راضين عن مبلغ الإكرامية الذى قبضوه منه فى المرة السابقة، خمسة جنيهات لكل حنطور، يدفعها المرشد أحيانًا من جيبه، ويتطاول العربجية عليه، وذلك لأنهم يعتقدون أن كل المرشدين يسرقون كل السياح. (خمسة جنيهات إكرامية لكل حنطور، وكذلك عشرة جنيهات عن كل نقلة ذهاب وعودة، أى أن عمل العربجى لأربع نقلات فى اليوم الواحد، يدر عليه عائدًا يوميًا لا يقل عن ستين جنيهًا، بالإضافة إلى ما قد يحصل عليه كذلك كإكرامية من السياح، ومع ذلك فعربجية إدفو غير راضين).

obeikandl.com

الإسعاف

(وسط البلد)

(١)

ذكرياتى عن هذه المنطقة من مناطق وسط البلد بالقاهرة كلها ذكريات إيجابية، فأنا قبل أن أجيء للإقامة فى القاهرة سنة ١٩٧٦، كنت أقص الإعلانات المبوبة من جريدة الأهرام التى تتعلق بالدورات الدراسية والمراكز الثقافية الأجنبية، وألصقها فى كراسة يومياتى، وذلك حتى تكون تلك الإعلانات حافزًا لى على المجيء للإقامة فى القاهرة، وتحويل أوراقى من طب طنطا إلى طب عين شمس. أتذكر وجود قصاصات عن ثلاثة معاهد إيطالية تقع فى منطقة الإسعاف:

أولا: معهد ليوناردو دافنشى (فنان إيطالى من عصر النهضة) للفنون والعمارة. وكان يمكن دخوله بالثانوية العامة، كما كان يمكن دخوله بالمؤهلات المتوسطة أو العالية لمتابعة الدراسات الحرة فيه. وقد اختفى هذا المعهد من الوجود فى ظروف غامضة.

ثانيًا: معهد كلاوديو مونتفيردى (موسيقى إيطالى من عصر النهضة) للموسيقى. وهو المعهد الذى قاوم الاختفاء فترة طويلة، وذلك حتى تمكنت فى أوائل الثمانينيات من متابعة الدراسة فيه، على يد الإيطالية مدام روسى، دراسة العزف على البيانو وقراءة النوتة، ثم اختفى هذا المعهد هو أيضًا فجأة من الوجود.

ثالثًا: معهد دانتى الليجيرى (أديب إيطالى من عصر النهضة) للغات. قام هذا المعهد خلال الثلاثين عامًا الأخيرة، وما زال يقوم – والحمد لله – بمهمة تدريس اللغة الإيطالية للمصريين، وهذا هو

ما مكننى من متابعة الدراسة فيه للغة الإيطالية خلال منتصف التسعينيات، ونجحت فى المستويين الأول والثانى، وما زال هذا المعهد يقاوم الاختفاء الفجائى، ويواصل بنجاح مهمته العلمية فى تعريف الشعب المصرى بالحضارة الإيطالية.

بالإضافة إلى هذه المعاهد الإيطالية المحترمة، فإن هناك كذلك أماكن أخرى جديرة بالاحترام تقع فى نفس المنطقة، منها مثلا كنيسة (سانت أندروز) التابعة للجالية الإنجليزية، وقد تابعت فيها دراسة الموسيقى فى الثمانينيات بعد اختفاء معهد كلاوديو مونتفيردى السابق الإشارة إليه. كانت دروس الموسيقى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع شبه مجانية، إذ إنك كنت تدفع جنيهًا مصريًا واحدًا مقابل كل درس، وذلك كنوع من المساهمة فى نشر الثقافة الموسيقية فى مصر، وكانت مسز هايدى المصرية تقوم بتدريس منهج (ترينتى كولدج فى لندن) الذى يقسم الموسيقى النظرية إلى ثمانية مستويات دراسية.

(٢)

توقفت عن دراسة الموسيقى عندما توقفت عن ممارسة مهنة العزف الموسيقى فى منتصف الثمانينيات، ولكنى عدت إلى منطقة الإسعاف فى صيف ١٩٩٦، وذلك للحصول على كورس مقدمة فى علوم الكمبيوتر لمدة ستين ساعة، فى مبنى جريدة الأهرام بشارع الجلاء، وكانت المحاضرة هى الأستاذة سالمة عبد العال، والكتاب الذى درسناه يحمل اسمها كمؤلفة. حاولت لاحقًا متابعة الدراسة فى نفس المبنى فى كورسات الحاسبات الشخصية، والنوافذ، ومعالجة الكلمات، إلا أن ظروفى لم تكن تسمح أبدًا بإنهاء تلك الكورسات.

ثم إن منطقة الإسعاف هى كذلك المنطقة التى يوجد بها معهد الموسيقى العربية، ويقع فى شارع رمسيس، وهو المعهد الذى كان قد افتتح سنة ١٩٢٩، فى حضور الملك فؤاد، حينما غنى محمد عبد

الوهاب من ألحانه وكلمات أمير الشعراء أحمد شوقى أغنية (فى الليل لما خلى). وكان لهذا المعهد دور كبير فى تكوين العديد من الموسيقيين والملحنين المصريين خلال أجيال متلاحقة منهم. وكنت قد حضرت فى حوالى سنة ١٩٦٥، حين كنت فى الثانية عشرة من عمرى، على مسرح نفس هذا المعهد، من فرقة مسرح القاهرة للعرائس، عرض أوبريت (الليلة الكبيرة)، من تأليف صلاح جاهين، وتلحين سيد مكاوى، وإخراج صلاح السقا. فيما بعد عندما عرض هذا العمل فى التليفزيون المصرى، سجلت الكلمات بخط يدى فى كراستى، وحفظت النص عن ظهر قلب (السمك مقلى / كل وبرق لى / استخار واختار/ فشة أو ممبار/ يلا سمى وكل) أو (أنا شجيع السيمة/ أبو شنب بريمة/ أول ما أقول آليه أب وأصرخ لى صرخة / السبع يتكهرب ويبقى فرخة) ... إلخ.

(٣)

وهكذا فإن منطقة الإسعاف ترتبط فى مخيلتى بكل ما هو جميل وحضارى، منذ طفولتى وحتى صدر شبابى.

أما الآن فإن الصورة جد مختلفة، فكلما جئت قادمًا من الزمالك مشيًا على الأقدام فى اتجاه وسط البلد، مرورًا بامتداد شارع ٢٦يوليه ثم مرورًا بمنطقة الإسعاف، مررت بذلك التقاطع بين شارعى الجلاء ورمسيس من جهة، وشارع ٢٦يوليه من جهة أخرى، تساءلت: ماذا حدث ؟ وماذا يحدث ؟ ومن أين جاء كل هذا الضجيج ؟ ومن أين جاءت هذه الهمجية ؟ ومن أين جاء هؤلاء المتخلفون سفاكو الدماء ؟

تقف عشر سيارات ميكروباص فى محطة الإسعاف، ويقف بجوار كل سيارة طفل أو شاب أو رجل كبير، يصيح كل منهم بأعلى صوته بكلمة واحدة هى كلمة (عمارة)، كلهم فى نفس واحد (عمارة)! أين يقع ذلك الحى ؟ أنا لا أعرف، أنا أفهم أن يكون هناك داع للصياح إذا كانت كل سيارة تتجه فى وجهة مختلفة، مثلا لو كانت هناك سيارة متجهة إلى بولاق وأخرى إلى إمبابة وثالثة إلى عمارة، لكان هناك داع للصياح. تمامًا مثل تخيل منظر عشرة باعة جائلين للفواكه، يجلس كل منهم أمام قفص به فاكهة مختلفة، برقوق أو خوخ أو مشمش أو تين أو فراولة، فينادى كل منهم على بضاعته، أما إن كانوا كلهم يبيعون فراولة، فما الداعى أن يصيح كل منهم دون توقف (فراولة) ؟

هؤلاء الصائحون إما أنهم يعتقدون أن المارة ضعاف السمع، أو أنهم يعتقدون أن المارة مترددون فى الذهاب إلى (عمارة)، وبالتالى فإن الصياح هو أحد أساليب إقناعهم بالتخلص من ترددهم، أو أنه أسلوب تخويف للمارة الذين لا يريدون أصلا الذهاب إلى (عمارة)، إلا أنهم بمرورهم فى هذا المكان يثيرون شهية الصائحين، فيكون الصياح للتخويف حتى يسرع الركاب بدخول السيارات دون تفكير.

وهناك احتمال أن يكون لهؤلاء الصائحين فائض هائل من الطاقة الصوتية التى لا يعرفون كيف يصرفونها، إلا باستهلاكها فى الصياح حيث إنهم يعتقدون أن تراكم تلك الطاقة الصوتية داخـــل حنـــاجرهم ضار بالصحة.

هناك كذلك احتمال أخير وهو أن تكون هذه حاليًا هـــى الطريقـــة العادية فى الكلام.

obeikandl.com

الإسكندرية

(١)

فى صيف سنة ١٩٦٠ كانت هناك بقرة خشب، تقف على رصيف الكورنيش فى المسافة بين شاطئى كيلوباترا وسبورتنج، كانت تخرج الساندوتشات من فمها. هذا هو كل ما أدركته وأنا طفل فى السابعة من عمرى، فأنا لم أفهم وقتها أن صاحب البقرة الخشب يبيع الساندوتشات، وأن والد الطفل يعطى البائع الثمن، وفى الوقت الذى يكون فيه الأطفال مشغولين بالنظر إلى فم البقرة، يكون البائع قد وضع الساندوتشات فى فتحة جانبية، تنحدر منها الساندوتشات إلى فم البقرة. كيف يستطيع الإنسان أن يبقى أطول فترة ممكنة فى عالم الطفولة ؟

ثم هناك كذلك حفلات سينما مترو الصباحية، أيام الجمعة والأحد، والتى كانت تخصص بين التاسعة والعاشرة صباحًا للأطفال، حيث تعرض أفلامِ الرسوم المتحركة (الكارتون) الأمريكية، وكنا نعرف أبطالها مسبقًا من مجلة ميكى الأسبوعية (الفأر المشاغب فى مغامراته مع القط – وكذلك البطة بطوط وبناتها الثلاث – لم أكن أعرف إن كانت سيدة أم رجلا هذه البطوط– الأستاذ عبقرينو حلاّل المشاكل – عم دهب المليونير البخيل).

كنا نسكن خلال شهور الصيف شققًا مفروشة فى شاطئ كيلوباترا، ويذهب الأطفال مع أمهاتهم إلى تلك الحفلات باستعمال عربات الترام حتى محطة الرمل، كانت الشوارع فى تلك الأيام أقل ازدحامًا بكثير. ثم عندما كنا نخرج من دار السينما، كنا نجلس حول موائد مطعم

وكافتيريا (أليت Elite) لنأكل الجيلاتي. كان صاحبها اليوناني ما يزال موجودًا في الإسكندرية، وقد أدركت بعد ذلك كيف أنه كان يشجع الأخوين (أدهم وسيف وانلي) بشراء بعض لوحاتهما التي كان يعلقها في مطعمه.

(٢)

سنة ١٩٦٢ استأجرنا شقة في شاطئ سيدي بشر، وكانت في الطابق الأرضي من عمارة تقع على الكورنيش مباشرة (أول صف)، وكانت لها شرفة عريضة نصف دائرية تمكنا فيها يوم ٧/٢٦ من مشاهدة موكب الرئيس جمال عبد الناصر في سيارته المكشوفة، وهو في طريقه من المعمورة إلى المنشية، لإلقاء الخطاب السنوي بمناسبة الاحتفال بالعيد العاشر للثورة.

إلا أن الأهم بالنسبة لنا (أنا وأخي)، هو أننا كنا نقف ذات يوم في هذه الشرفة، وإذا بنا نشاهد فتى أحلامنا، ومثلنا الأعلى، عبد الحليم حافظ، في سيارة سبور حمراء صغيرة، كان يتحدث مع الناس في الشارع ويسلّم عليهم باليد. عرفنا أنه يسكن في شقة قريبة، وهكذا أصبحت مسألة البقاء في الشرفة صباح كل يوم، أطول مدة ممكنة، مسألة هامة جدًا. وقد زاد من تأثيره علينا في ذلك الوقت أننا كنا قد شاهدناه في دار سينما المنتزه، والتي تقع على بعد دقائق من شقتنا، في فيلم (يوم من عمري) مع زبيدة ثروت، حيث كان يلعب دور صحفي تقع الفتاة ابنة المليونير في حبه.

(أندم لو حبيت وقاسيت/ وأندم لو عمري ما حبيت/ بس لو ألاقي اللي أحبه/ واللي قلبي يروح لقلبه/ واللي ترتاح روحي جنبه / يومها عمري ما أبقى خايف) كنت في الثامنة والنصف من عمري، ولكني كنت أعيش كل يوم قصة حب جديدة. وأتذكر أنني كنت أجلس في فراشي مساء كل يوم، لأذاكر القائمة الكاملة للفتيات اللائي أحببتهن،

فأقول مثلا رقم ١- البنت التى شاهدتها أول أمس فى فستان أزرق ٢-البنت التى شاهدتها صباح اليوم بحذاء أحمر.... وهكذا. كان يكفى أن أستمع الى الأغنية فى الإذاعة مرة واحدة، حتى أبدأ فى حفظ الكلمات واللحن، وذلك بترديدها مع الراديو عند إذاعتها كل مرة، لم نكن قد عرفنا بعد شرائط الكاسيت. الظريف فى الموضوع أن أخى الأصغر كان يعتقد أن عبد الحليم حافظ يسكن الى جوارنا، وذلك ليذهب كل مساء الى دار سينما المنتزه، ليلعب دوره فى الفيلم. حاولت أن أشرح له فكرة السينماء، ولم يكن مقتنعًا. إلا أننى عندما ذكرت له أن هذا الفيلم يعرض فى القاهرة وفى الإسكندرية فى نفس الوقت، احتار قليلا ولم يعرف كيف يفسر تلك الظاهرة الغريبة.

(٣)

في صيف سنة ١٩٦٤ عدنا الى شاطئ كيلوباترا، وكانت لدينا الكابينة رقم ٤١٤ في شاطئ ستانلي، وكنا نذهب لقضاء النهار هناك. لم تكن أمي توافق على أن نذهب للاستحمام في البحر بدون مراقبة ومرافقة خادمة أو أكثر، كما أنها كانت تعارض دائمًا كل ما يتعلق بممارسة أي أنشطة خاصة بالشواطئ. فمثلا مسألة لعب كرة المضرب (الراكيت) كانت بالنسبة إليها مسألة خطيرة جدًا، فإن الكرة يمكن أن تصطدم برأس اللاعب. هناك كذلك مسألة الذهاب بالسنانير الى أماكن صيد السمك، وكانت تعارض في ذلك بحجة أن السنارة بها شص معدني (الخُطّاف الذي يتعلق به الطُعم)، وأن هذا الشص يمكن أن يخترق الجلد في أي مكان ولا يخرج منه. هذه مجرد أمثلة قليلة ولكن الحقيقة أن أمي كانت مسكونة بما لا حصر له من المخاوف، مما أدى الى حرماننا (أنا وأخي) من تجارب الطفولة البريئة والمفيدة. إلا أن أكثر ما يعلق بذاكرتي ذلك العام هو كازينو ستانلي، والذي كانت تلعب به فرقة موسيقية غربية حديثة، وكنت لأول مرة في حياتي أرى وأسمع الجيتار الكهربائي.

في العام التالي ١٩٦٥، اكتشفنا وجود شاطئ جديد خلف قصر المنتزه، وهو شاطئ المعمورة، والذي كان حتى ذلك العام ما يزال شاطئًا بكرًا، عمارات قليلة متناثرة، وكبائن من طابق واحد، يقع الى جوارها الممشى الذي لم يكن يفصله عن الرمال والماء تلك الأسوار القبيحة الموجودة حاليًا، فكان يمكننا أن نذهب الى الرمال والماء في أي ساعة من ساعات الليل والنهار.

كان المغني الأمريكي (نيل صاداقا) ويمكن أن يكتب إسمه أحيانًا (ساداكا Sedaka)، يغني أغنيته الشهيرة (أوه كارول Oh Carol)، وكنت أعتقد أنني نيل ساداكا وأن لديّ صديقة اسمها كارول. كنت ما

زلت فى مرحلة الانتقال من الطفولة الى المراهقة (والتى لم تكن بهـا أية مراهقة والعياذ بالله)، ولكنى رغم كل شئ كنت طفلا سعيدًا.

Oh Carol, I am but a fool,
Darling I love you, though you treat me cruel,
You hurt me, and you make me cry,
But if you leave me, I will surely die.

كانت الأغنية المذكورة أعلاه هى أغنية الموسم، وكان محل الـبن البرازيلى بالمعمورة يذيعها بدون توقف، فكنت أدخل هذا المحل ومعى ورقة نقدية فئة خمسة قروش، لأدفعها بكل خيلاء الى موظفة الخزينة، فتعطينى ورقة صغيرة مطبوعًا عليها بالفرنسـية كلمتـين سـحريتين Chocolat glacé، أى مشروب الشيكولاته المثلجة، وكان ثمنه ثلاثـة قروش ونصف، وكنت أترك للبائع نصف قرش (تعريفـة) إكراميـة، فكان يحيينى تحية خاصة، وكنت أقف أحتسى كوبى على مهل، وذلـك حتى أستمتع بالأغنية. كنت أذهب بعد ذلك الى ملعب الباتيناج، وكانـت هذه الرياضة على الموضة فى ذلك الوقت، فكنـت أسـتأجر قبقـاب التزحلق ذا العجلات الصغيرة بقرشين صاغ فى الساعة.

فى ذلك العام ١٩٦٥، كنت قد حصلت على شهادة الابتدائية، وحيث أننى قد أصبحت من حاملى الشهادات، فقد بدأت أشترى كتبًـا وأقـرأ. وعلى رصيف ما فى نفس الشاطئ، وجدت نسخة من كتـاب (الأيـام) لطه حسين، من إصدارات دار المعارف. كانت هذه هى البداية الحقيقية لرحلة الثقافة، فقبل ذلك وحتى إجازة العام السابق، لـم أكـن أقـرأ إلا طرزان وأرسين لوبين ومجلات سمير وميكى وسوبر مـان وكـروان (هذه الأخيرة هى المجلة التى كانت قد صدرت لمدة عام واحد، وكـان رئيس تحريرها هو الكاتب المسرحى نعمان عاشـور، فـى محاولـة لإخراج مجلة أطفال مصرية مائة فى المائة). وأتـذكر كـذلك مجلـة

السندباد والتى كانت تصدر فى الخمسينيات، وكنت أعتبرها فى ذلك الوقت تخص جيلا سابقًا على جيلى. بالإضافة الى طه حسين، فقد بدأت الانتظام فى شراء الأعداد الشهرية من المكتبة الثقافية (قرشان صاغ) واقرأ (ثلاثة قروش صاغ) ومجلة رسالة اليونسكو (ثلاثة قروش صاغ) ومجلة تراث الإنسانية (خمسة قروش صاغ).

(٤)

كانت طفولتى سعيدة نسبيًا، أما مراهقتى فكانت تعيسة. لا أستطيع أبدًا أن أتذكر شقق المصايف فى الإسكندرية إلا بحسرة! سيدى بشر، العصافرة، المعمورة، ميامى. كل ذلك بين عامى ١٩٦٦ و ١٩٧١ (بين سن الثالثة عشرة والثامنة عشرة). كل هذه الشقق ترتبط فى وجدانى بإحباطات عاطفية. فهناك دائمًا منظر الأطفال الصغار وهم يلعبون فى الشارع أو فى حديقة صغيرة أسفل العمارة. وكانت أمى تحتفظ بى دائمًا فى المنزل، تسمح لى فقط بمراقبة هؤلاء الأطفال من النافذة فى محبسى. لا أدرى إلى الآن إن كان سبب خوفها علىّ هو البنات الصغيرات ذوات الضفائر والجونيلات ؟ أم أن هذا السجن كان بسبب خوفها هى شخصيًا من الجيران لعدم قدرتها على التأقلم اجتماعيًا مع الناس ؟ أم أن هذا السجن كان بسبب ما ذكرته هى لى من أنها كانت تخاف علينا أنا وأخى من حوادث السيارات؟ أو هو خوفها أن نتعلم كلمات قبيحة أو أشياء ضارة من الجيران أو من أولاد الشوارع ؟

ولكن كانت النتيجة من كل ذلك هى أنه كان قد تولد لدىّ قدر كبير من الخوف من الشارع، وكذلك من الغرباء بشكل عام، ومن جنس البنات بشكل خاص، حتى أنى كنت أتلعثم ويحمر وجهى خجلا كلما اضطررت فيما بعد (وحتى مرحلة الجامعة) الى التحدث مع فتاة أو

مع سيدة من الجيران، وذلك خوفًا مما يمكن أن يعتقده النـــاس فـــيّ! وخوفًا مما يمكن أن يقوله الناس عليّ! أنا أعتقد مخلصًا أننـــي كنـــت أعاني في ذلك الوقت من حالة بارانويا حادة (إحســـاس بالاضـــطهاد وبمراقبة الآخرين للشخص المعنى بالحالة)! ولم أستطع أن أتخلـــص من تلك الحالة إلا بعد سنوات من البحث في علم النفس وفـــي علـــم الأمراض النفسية، وكذلك بعد ممارسة مهن مختلفة مثـــل الموســـيقى والإرشاد السياحي.

وكنت قد وصلت الى نتيجة مؤداها أن تربية أمي المتزمتة كانـــت هي السبب الرئيسي في تعاستي خلال فترة المراهقة. وقد سألتني أمي مؤخرًا (سنة ٢٠٠٥) إن كانت تربيتها لنا (أنا وأخي) قد كانت أكثـــر تزمتًا من تربية غيرها من الأمهات لأولادهن؟ فقلت لها (أعتقد أننـــي لم أتمكن من العثور على تربية أكثر تزمتًا من تربيتك لنـــا، إلا فـــي بعض الحالات داخل مستشفيات الأمراض النفسية).

في يوليو ١٩٦٨، كنا نستأجر شقة في شاطئ ميامي، وكنت أجلس في الشرفة في الأمسيات ألعب موسيقى على الجيتار، وجاءت عديلـــة (الفتـــاة الريفية التي كانت تعمل لدينا شغالة) لتقول لي أن فـــي الطـــابق الأســـفل، استوقفتها ابنة أصحاب الشقة لتسألها عن موسيقى الجيتار التي تسمعها آتية من شرفتنا، وعمن هو هذا العازف المجهول؟؟ وقد ذهبت عديلة أولا الـــى أمي لتخبرها بذلك، حيث إن عديلة كانت قد أدركت مدى سيطرة أمي على المنزل عامةً وكذلك عليّ أنا بصفة خاصة... كانت أمي قد أمرت عديلـــة بعدم إبلاغي بهذا الخبر (ويا دار ما دخلك شر). إلا أن عديلـــة الكريمـــة النفس الأبية، رفضت هذا الظلم البين الواقع عليّ وجاءت لتخبرنـــي بمـــا حدث، وأبلغتني برسالة الجارة وبرغبتها في رؤيتي، ليس هذا فقط بـــل إن عديلة كانت قد طالبتني بضرورة أن أثور على أمي، وبـــأن أضـــع حـــدًا لتدخلها في حياتي....

ولكنى لم أفعل أى شيء... لا سألت فى الفتاة، ولا حتى ثرت على أمى... بل على العكس إذ بدلا من التمرد فقد زاد الانصياع، وبدلا من أن تكون لى مجموعة أصدقاء أخرج معهم فقد كنت أكرس كل وقتى لأمى، وكان أخى الأصغر دائم السخرية منى، وكنت أتقبل هذه السخرية بصدر رحب، متخيلا نفسى شهيد الواجب..فأنا أضحى بنفسى فى سبيل سعادة أمى....؟؟؟ كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مسالمًا جدًا، لا أنشغل فى حياتى إلا بالمذاكرة فى أثناء العام الدراسى، وبالقراءة وعزف الموسيقى وحفظ رباعيات الخيام عن ظهر قلب (لبست ثوب العيش لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر....إلخ) فى أثناء الإجازة الصيفية. ولم أبدأ فى التمرد على أبوىّ إلا بعد ذلك بسبعة أعوام.

(٥)

بدأ ضغط الوالدين الذى كنت قد عانيت منه خلال فترة المراهقة (١٩٦٦-١٩٧١) يخفّ قليلا بدخولى كلية الطب سنة ١٩٧١، حيث إن مستقبلى حسب مفهومهما كان قد أصبح مضمونًا. وهكذا أتيح لى قدر من حرية الحركة، فتمكنت من الذهاب وحدى مثلا الى السينما، وكنت أختار أفلامًا لا يقبل عليها عادة جمهور كبير، فأنا أتذكر مثلا خلال العام ١٩٧٢/٧١ مشاهدة أفلام من نوعية (الموت فى فينيسيا / لفيسكونتى – مكبث / لرومان بولانسكى). وكنت أندم بشدة على وجودى فى طنطا طوال العام محرومًا من فرص مشاهدة مثل تلك الأفلام، والتى لم تكن تُعرض إلا فى القاهرة والإسكندرية، فكنت أنتهز فرصة وجودى خلال شهور الصيف مع الأسرة فى الإسكندرية لتعويض هذا النقص.

إلا أن عشقى للموسيقى كان قد بدأ يتضح بشدة، بحيث أصبح أقوى من أى شئ آخر فى الحياة، وكنت أذهب فى تلك الفترة وحدى،

أو مع شلة أصدقاء أخي، الى حفلات الماتينيه التي كانت تقيمها بعض الفرق الموسيقية في حدائق قصر المنتزه، أيام الجمعة والأحد. كان رسم الدخول بتذكرة موحدة قيمتها عشرون قرشًا، وتتضمن مشروبًا كان في الغالب شايًا مثلجًا. كنت أذهب صباح الجمعة الى سلاملك قصر المنتزه، حيث كانت تلعب فرقة (المعاطف السوداء Black Coats)، وكان مؤسس الفرقة ورئيسها هو إسماعيل الحكيم، ابن الكاتب المعروف توفيق الحكيم، وكان قد تخرّج من معهد السينما. أتذكر كذلك من أفراد فرقته، أشرف سلماوى الجيتاريست، وكذلك مجدى الحسيني عازف الأورج المعروف بعد ذلك.

وكنت أذهب صباح الأحد الى فرقة (القطط الصغيرة Les Petits Chats)، وكان بها موسيقيون فطاحل من نوعية هاني شنودة وعمر خيرت (وقد اشتهرا جدًا بعد ذلك)، وكان هناك كذلك بينو (عازف الجيتار)، وتيمور كوته (عازف الباص جيتار)، ولوكاس (عازف آلات النفخ)، والمغنى صبحي بدير (سيصبح بعد ذلك مغنى أوبرا معروف).

أما الفرقة الثالثة التي كانت تنازعهما الجمهور فهي فرقة (القطط The Cats)، وكانت تعزف في فندق سان استيفانو، وفيها تعرفت على موهبة فذة في العزف والتلحين وهو (عزت أبو عوف)، الطبيب سابقًا، والممثل الممتاز لاحقًا. وكذلك أتذكر من أفراد الفرقة المغني (صادق قليني). هؤلاء كانوا أبطالي خلال تلك الأعوام ١٩٧٣/٧٢/٧١. كنت أذهب الى تلك الفرق مبكرًا قدر الإمكان، لأجلس في أقرب مكان من خشبة المسرح، حيث يقف الموسيقيون بآلاتهم الموسيقية، وخلفهم صناديق ضخمة هي آلات تكبير الصوت وسماعاتها (أمبليفايرز). وعندما يبدأ العزف أغرق في بحر من السعادة، ولا أعرف كيف ألاحق الآلات الموسيقية في عزفها، كنت أشعر كأني أحتاج إلى عشر آذان حتى أضع كل واحدة منها إلى

جوار واحدة من الآلات الموسيقية، وكذلك كأنى كنت أحتاج الى عشر عيون لأضع كل واحدة منها أمام كل عازف. كنت أظل منبهرًا هكذا، ومشدوهًا تمامًا طوال مدة العرض، وكانت الساعات الثلاث تمر كما لو كانت دقائق ثلاث.

(٦)

فى يوليو ١٩٧٥، وكانت تلك هى أول إجازة صيف أقضيها فـــى الإسكندرية ومعى سيارتى الجديدة الفولكس، والتى كنت قد اشـــتريتها من فرنسا قبلها بعام. كنا شلة من ثلاثة أشخاص، أنا وأخـــى وأحـــد الأصدقاء. وكانت لهذا الصديق شقة يقيم فيها بمفرده فى اســـبورتينج، فقد كان طالبًا فى كلية الآداب بالإسكندرية. قلنا لأنفسنا: "شقة وعربية مش ناقص إلا الحريم". وحيث إن السيارة ســـيارتى، والشـــقة شـــقة الصديق، فقد تكفل أخى بالباقى. ركنت السيارة أمام ملهى ليلى علـــى طريق الكورنيش اسمه النسر الأحمر، ونزل أخى وبقينا أنا والصديق فى السيارة. عاد بعد ربع ساعة ليقول لنا: انزلا. نزلنا ودخلنا المحل وجلسنا إلى مائدة وطلبنا علب بيرة، وكان ثمن العلبة المستوردة فـــى ذلك الوقت ٧٥قرشًا، ثم جاءت إحدى الفتيات لتجلس إلـــى مائـــدتنا، وأخرجت قطعة من الحشيش لترينا إياها. فإذا بهذه القطعة تسقط على الأرض!!؟؟ انحنت الفتاة تبحث عن القطعة، وجاءت فتيات أخريـــات لمساعدتها، ولينتهى هذا الموقف بخروجنا من المحل متهمين بســـرقة قطعة الحشيش!!؟؟ وعندما كنا ما نزال جالسين فى السيارة أمام باب الملهى شاهدنا سيارة بوكس تقف أمامنا، وينزل منها عدد من الجنود وضابط ويدخلون المحل. نتمكن من موقعنا بالسيارة أن نرى الضابط وهو يصفع عددًا من الموجودين بالمحل، بعد إخراجهم منه، وحمـــدنا الله أننا كنا فى السيارة، وقنعنا من الغنيمة بالإياب.

(٧)

فى يوليو ١٩٧٧، كنا أنا وأخى نقضى إجازة أسبوعين لدى صديقين أخوين هما ناجى وصبرى، وذلك فى شقة والدهما بكيلوباترا. كنا نحن الأربعة تقريبًا في نفس السن، بفارق عامين بين أصغرنا وأكبرنا. كان الفارق الرئيسى بيننا (أنا وأخى) وبينهما، هو أنهما كانا قد حصلا على حريتهما مبكرًا جدًا. كان ناجى قد لخص سبب ذلك فى أنهما كانا قد تمردا على والديهما مبكرًا جدًا، وإن كان هذا التمرد لم يمنع قيام مودة شديدة وحب متبادل بين الأخوين ووالديهما. لم تكن حقيقة ضرورة التمرد المبكر على الوالدين قد أصبحت ناصعة تمامًا فى ذهنى كما هى الآن.

كان للأخوين ناجى وصبرى خبرة كبيرة فى الحياة، وخاصة فيما يتعلق بموضوع النساء، فأسلمنا لهما أنا وأخى القياد، وأصبحنا نتبعهما كظلهما فى كل مكان يذهبان إليه فى الإسكندرية، متابعة المريد لأستاذه، على طريق الكورنيش، أو على شاطئ البحر، أو فى محطة الرمل.... إلخ. وكنا ننبهر تمامًا بالطريقة التى يتقدم بها أحدهما فى الطريق الى أى أنثى يعرفها أو لا يعرفها، وحدها أو بصحبتها أشخاص آخرون، ليحدثها هكذا حديثًا لطيفًا ودودًا ساخرًا، لترد عليه بعد ذلك بمنتهى البساطة، وتضحك من قلبها. كنت أعتقد جازمًا أن ما يقوم به هذان الأخوان هو نوع من السحر.

يتولى بعد ذلك أحدهما تقديمها لنا، وندعوها جميعًا بعد ذلك الى ركوب السيارة (الفولكس فاجون) معنا. كان اثنان منا يركبان فى المقعد الخلفى معها، واثنان آخران فى المقعدين الأماميين، ليتولى أحدهما قيادة السيارة. ثم بعد ربع ساعة نستبدل الأماكن، بحيث ينتقل الاثنان اللذان كانا فى المقعد الخلفى مع الفتاة، إلى المقعدين الأماميين وهكذا. كانت المسألة مجرد مناوشات بريئة بالأيدى، وكنت كالمعتاد

أشعر بحرج بالغ، وكنت أقل الأربعة إقبالا على المشاركة، وكان ذلك يثير فى الأغلبية المطلقة من الحالات ضحك الفتيات، اللاتى كن يغادرن السيارة فى الأغلبية المطلقة من الحالات ضاحكات مسرورات. كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى.

وذات ليلة من ليالى آخر يوليو من نفس العام، عرفنا أن حفلا سيقام فى الهواء الطلق على رمال شاطئ العجمى، تحت مسمى (ساند ستوك Sand Stock)، على وزن مهرجان موسيقى كان قد أقيم فى أمريكا سنة ١٩٦٨ تحت اسم (وود ستوك Wood Stock). كنا قد قررنا الذهاب، وكانت السيارة تسهل حركتنا كثيرًا. لم نفكر قبل الذهاب إلا فى شراء زجاجة نبيذ أحمر حلو أباركة، لاحتسائها هناك على الرمال لزوم الفرفشة، كان ثمن الزجاجة ستين قرشًا (الآن ثمنها ثلاثون جنيهًا أى خمسون ضعفًا). عندما وصلنا الى مكان الحفل اكتشفنا أن ثمن تذكرة الدخول هو ثلاثة جنيهات. مفاجأة غير سارة، وذلك لأن المبلغ الموجود لدينا فى كل جيوبنا لم يكد يبلغ نصف المطلوب. ماذا نفعل ؟

درنا حول الحواجز التى كان قد أقامها منظمو الحفل، وكانت مكونة من أعمدة خشبية تصل بينها أقمشة من نسيج الخيامية، ولم نجد أى منفذ. إلا أنه عند وصولنا إلى خلف المسرح الخشبى الذى كانت تقف عليه الفرق الموسيقية، اكتشفنا أنه يمكننا أن نمر أسفله. وكان هذا هو ما فعلناه. كانت مظاهر الثراء السريع التى صاحبت بداية سياسة الانفتاح، واضحة جدًا فى ملابس وتصرفات الشباب داخل الحفل. تتابعت الفرق الموسيقية على المسرح، وأذكر منها مثلا فرقة (سترينجز Strings)، وكان صاحبها هو جورج كاركور، وقد سمح القدر بأن أحل محل هذا الشخص كعازف للباص جيتار مرتان بعد ذلك. الأولى فى فبراير ١٩٨٠، وكانت الفرقة فى شاليمار

بالهرم، وكان جورج غائبًا بسبب الجيش، والمرة الثانية كانت في فبراير ١٩٨٤ في فندق هيلتون رمسيس، وكان جورج قد ذهب في إجازة قصيرة الى إنجلترا.

دام هذا الحفل عشر ساعات، من التاسعة مساءً الى السابعة من صباح اليوم التالي، وكانت أجمل العروض الموسيقية على الإطلاق هي فرقة جاءت الى المسرح مع الأضواء الأولى للفجر، عندما أطفأت إدارة المهرجان الأضواء الكهربائية.

كانت الفرقة مكونة من أربعة عازفين، تعرفنا على الفور على عازف الجيتار (حسين الإمام) وذلك لأنه كان قد ظهر كممثل في بعض أفلام والده المخرج حسن الإمام، وأدركنا كذلك أن أخاه (مودى الإمام) هو عازف الكي بورد، وهو الذى سيصبح فيما بعد واحدًا من أفضل واضعي الموسيقى التصويرية في السينما المصرية. أما العازفان الآخران فكانا أمريكيين. استمتعنا جدًا بعزف هذه الفرقة لمجموعة من أغاني الهارد روك، للعديد من الفرق الأمريكية، ولكني ما زلت أتذكر أداء هذه الفرقة المتقن جدًا لأغاني الألبوم الأخير للمغني الأمريكي الزنجي الكفيف (ستيفي واندر Stevie Wonder).

المشكلة الوحيدة تلك الليلة هي أننا عندما حاولنا فتح زجاجة النبيذ، استعملنا مفتاح السيارة الذى انكسر الى قطعتين، ولكننا استأنفنا حضور الحفل حتى نهايته، ثم نزلنا أنا وناجي الى محطة الرمل الساعة السابعة صباحًا، باستعمال المواصلات العامة، وكان الواقع مريرًا بعد تلك الليلة الخيالية الحالمة. اضطررنا الى الانتظار ساعة أمام ورشة تصليح مفاتيح، حتى فتحت أبوابها في تمام التاسعة، وتمكن الأسطى الماهر من صنع مفتاح بديل مستهديًا بالقطعتين المتبقيتين. عدنا بنفس الأتوبيس الى العجمي، لنجد أن عصام وصبري ينامان على رمال الشاطئ في ظل أحد المباني، والحمد لله فقد تمكننا من فتح السيارة وإدارة محركها بالمفتاح الجديد.

(٨)

في يناير ٢٠٠١ كنت مع شركة إيستمار للسياحة المصرية وشركة كوني للسياحة الفرنسية، نقوم بعمل برنامج سـياحي كـانوا يسـمونه (شامبليون)، وفيه كان السياح يصلون الى الأراضي المصرية بالطائرة الى الإسكندرية مساء السبت، ثم يقضون يوم الأحد في زيـارة آثـار

الإسكندرية، المتحف اليوناني الروماني وعمود السواري وكوم الشقافة ومقابر كوم الدكة، كل هذا قبل وجبة الغداء أي من ٩ص الى الواحدة ظهرًا، ثم بعد الغداء، أي من ٢ م الى ٥ م، زيارة قلعة قايتباي وجامع المرسي أبي العباس (وأضيفت حاليًا زيارة مكتبة الإسكندرية)، وكل هذه الزيارات كما هو واضح زيارات دسمة جدًا، تحتاج الى يومي زيارات لا الى يوم واحد، ولكني كنت كمرشد سياحي مضطرًا الى اختصار تعليقاتي حتى أتمكن من عمل كل هذه الزيارات في هذا الوقت المحدود وذلك على أمل استئناف الحديث مع سياح مجموعتي عن مصر البطلمية، في أثناء زيارات المعابد البطلمية في الصعيد (دندرة وإسنا وإدفو وفيلة).

كنا نقيم في فندق فلسطين في حدائق قصر المنتزه، وكنا مضطرين بسبب الحوادث الإرهابية الى البقاء في صحبة سيارة شرطة، كانت تأتي إلينا في الفندق صباحًا، وتظل معنا وفي انتظارنا طوال ساعات الزيارات، وتتنقل معنا بين المواقع الأثرية... جاءني صباح يوم ضابط صغير بنجمة واحدة، وبعد صباح الخير والذي منه، بدأ في امتداح زميلي المرشد السياحي الذي كان يرافقه نفس هذا الضابط في نفس هذا البرنامج أثناء تنفيذه الأسبوع السابق!! وأردت ببراءة شديدة معرفة سبب تميز المرشد زميلي، هذا التميز الذي جعل هذا الضابط يمدحه كل هذا المديح، لعلي أستفيد منه شيئًا لتحسين أدائي الإرشادي!! فما كان من هذا الضابط إلا أن قال : تصور قوة المرشد زميلك!! لقد استطاع أن ينهي زيارات اليوم كله قبل وجبة الغداء!! لعلك تستطيع أن تفعل مثله وذلك حتى أتمكن من الغداء في منزلنا!!!

أسوان

(١)

خرجنا من الفندق الواقع أعلى التل حوالى الثالثة ظهرًا، وذلك لنسير فى ممر منحدر طويل تحت الأشجار، حتى وصلنا إلى فندق (أولد كتاراكت)، مررنا أولا بحديقته الجميلة، وسرّنا منظر شرفاته الخشبية، كان الجو دافئًا رغم أننا كنا فى أول مارس. كانت جميع الفنادق مزدحمة ذلك العام، كانت الأغلبية للسياحة الداخلية المصرية، وكانت الأقلية للسياحة الأجنبية، وذلك لأننا كنا فى الموسم السياحى ١٩٦٨/٦٧، وهو الموسم الذى عشنا فيه جوًا من الإحباط العام بسبب نكسة يونيه.

وكانت حكومة مصر تشجع المصريين على السياحة الداخلية من خلال برنامج (اعرف بلادك)، وهو برنامج يسمح للأفراد وللأسر بالذهاب والعودة، بين القاهرة والأقصر وأسوان، فى قطارات عربات النوم الفاخرة، بالإضافة إلى الإقامة الكاملة فى فنادق ثلاثة نجوم، لمدة ثلاث ليالى، كل ذلك من القطار إلى الفنادق إلى برنامج الزيارات الأثرية والسياحية إلى الوجبات اليومية الثلاث، كل ذلك بسبعة جنيهات مصرية فقط لا غير.

هذه هى أول مرة أحضر فيها إلى أسوان، كنت فى ذلك العام فى الصف الثالث الإعدادى، وكنت قد بدأت عادة كتابة المذكرات اليومية فى كراسات خاصة، وهكذا فإننى ما زلت أحتفظ بالكراسة التى كنت قد كتبت فيها ذكريات تلك الرحلة.

بعد أن خرجنا من فندق (أولد كتاراكت) ذهبنا إلى كورنيش النيل، ودخلنا محلاً كبيرًا للعاديات الشرقية (بازار)، وذلك لأن السيدة والدتى كانت تريد شراء خاتم بفص جعران، وكان البائع قد أقنعها بأن فص الجعران حقيقى، وأن ثمنه هو ثلاثة جنيهات، وهو مبلغ هائل بمعدلات تلك الأيام، نجحت أمى فى مناقشة البائع فى السعر حتى حصلت على تخفيض قدره ربع جنيه، شئ مضحك.

أتذكّر كذلك أنه كان قد لفت انتباهى كتاب من جزأين، عن المدرسة الانطباعية فى فن التصوير الأوروبى (مانيه – مونيه – إلخ...)، وكانت طموحاتى الثقافية قد بدأت فى الظهور، إلا أن سعر الكتاب كان مرتفعًا جدًا فلم أتمكن من شرائه، كان السعر سبعين قرشًا.

عندما عدنا إلى فندقنا أعلى التل، وكان اسمه فندق النصر (هل لهذه التسمية علاقة بما حدث فى يونية ١٩٦٧؟)، ويشغل موقعه حاليًا فندق بسمة، خمسة نجوم، ويقع أمامه حاليًا متحف النوبة، اكتشفت أثناء تناول طعام العشاء فى مطعم الفندق، وجود دودة شبيهة بدودة القز فى طبق البسلة، فلم أستطع إنهاء عشائى (كل هذا مسجل فى كراسة مذكراتى). خرجنا من المطعم لنتجمع فى حديقة الفندق، وذلك لممارسة لعبة (عروستى)، وهى اللعبة التى تتكون من اختيار شخص ما يُطلب منه أن يخرج بعيدًا عن المجموعة، وذلك حتى تتفق المجموعة على اختيار شئ ما، يعود الشخص إلى المجموعة ويبدأ فى سؤال كل فرد منها سؤالا واحدًا يحاول أن يستدل به على ما هو الشئ المختار، وكان هذا الشئ الذى اخترناه لحظتها هو آلة التصوير، وأتذكر أننى قلت (عروستك بتغمز لى)، مما أضحك الجميع، وذلك إشارة إلى حركة الغلق والفتح فى عين العدسة .

اكتشفنا وجود مغنية قديمة من جيل عبد الوهاب معنا فى حديقة

الفندق، وهى السيدة (لور دكّاش)، وهى مغنية لبنانية تقيم فى مصر منذ طفولتها، واشتهرت لها أغنية (آمنت بالله)، وهى الأغنية التى سترقص على نغماتها فيما بعد كل نجمات الرقص الشرقى، ويا للعجب. كان مع المغنية ابنها وهو شاب صغير من سنى، وكان طويل القوام وأشقر، ويحمل دائمًا آلة جيتار فى حقيبتها على ظهره، كما كان يفعل عدد كبير من شباب العالم ذلك العام، فإنه بالرغم من الإحباط العام الذى كنا نعيش فيه فى مصر، كان شباب العالم يحتفل ذلك العام ببداية عصر الحرية، ثورة الشباب فى فرنسا مايو ١٩٦٨ على القيادة القديمة الممثلة فى ديجول، مهرجان موسيقى الوود ستوك فى أمريكا، إلخ.... وكنت قد ذهبت مع أمى فى يونيو من العام السابق إلى محل الموسيقى (بابازيان) بشارع عدلى، وذلك حيث اشتريت جيتارًا كان ثمنه ١٢جنيهًا.

كان أحد أصدقاء أبى يعمل مهندس حقن فى موقع السد العالى، وكان قد دعانا إلى منزله الواقع فى مساكن كيما، خلف مصانع الكيماويات المعروفة بنفس الاسم، هناك تعرفنا على زوجته وأطفاله، ووجدنا كذلك شابًا روسيًا يعمل فى مشروع السد العالى، وكان يشرح لصديق والدى طريقة استعمال آلة التصوير روسية الصنع. عندما عدنا إلى الشارع لاحظت وجود كشك يعرض كتبًا، ذهبت إليه فوجدت كتابًا فى تعليم اللغة الروسية لأبناء العربية ويتكون من ثلاثة أجزاء. تعيدنا أجواء فيلم يوسف شاهين (الناس والنيل) إنتاج ١٩٧٠، إلى تلك الفترة الجميلة من تاريخ المدينة، الفترة التى تمثلت فيها بوضوح الصداقة بين الشعبين المصرى والروسى، وكذلك فإن هناك رواية الأديب المصرى (صنع الله إبراهيم) والتى تدور أحداثها فى ذلك الزمان فى أسوان واسمها (نجمة أغسطس).

BLUE GUIDE
EGYPT

(٢)

لم أعد بعد ذلك إلى أسوان إلا فى يوليو ١٩٨٤، عندما كنت مع اثنين من أصدقائى قد قررنا دراسة آثار مصر فى منطقة الصعيد، استعدادًا لدخول امتحان وزارة السياحة، للحصول على ترخيص إرشاد سياحى.

كنا قد درسنا منهجًا نظريًا فى إيجوث (قطاع التدريب بالطابق الرابع بمبنى فندق الكونتيننتال بميدان الأوبرا) لمدة أربعة أشهر، ثم قررنا أن ندرس هذه الآثار عمليًا على الطبيعة، فأخذنا قطار الصعيد من محطة كوبرى الليمون بباب الحديد الساعة السابعة مساءً، وقد وصل هذا القطار إلى أسوان الساعة الثالثة ظهر اليوم التالى، أى أن الرحلة قد استغرقت عشرين ساعة، وإذا عرفنا أن المسافة هى ٩٠٠كم، يمكننا بسهولة حساب متوسط سرعة القطار وهى ٤٥كم/ساعة.

عندما وصلنا إلى ميدان محطة أسوان، كان الجو حارًا جدًا، اتجهنا فورًا إلى بيت شباب أسوان، والذى يقع فى ميدان المحطة، وأخذنا ثلاثة أسرّة، ووضعنا حقائبنا فى دولاب واحد، أغلقناه بقفل ومفتاح كنا قد أحضرناه معنا من القاهرة، نمنا ساعة ثم قررنا الخروج فى هذا القيظ لزيارة قبر عباس العقاد، وكذلك لزيارة المسلة الناقصة، وحتى تصبح المهمة مستحيلة فقد قررنا الذهاب إلى ذلك القبر وتلك المسلة مشيًا على الأقدام! هل كنا نحاول توفير خمسين قرشًا كنا سندفعها لسائق التاكسى؟ (يكلف هذا المشوار الآن بعد عشرين عامًا تقريبًا على الأقل خمسة جنيهات).

بعد زيارة القبر والمسلة اضطررنا إلى العودة إلى المدينة باستعمال التاكسى، ثم مررنا على الأقدام بشارع السوق، حتى اكتشفنا مطعمًا شعبيًا يقدم وجبة أرز وملوخية وفراخ بمبلغ ١٢٥قرشًا (يا بلاش – ماذا حدث للأسعار؟ تكلف هذه الوجبة الآن فى نفس المكان

خمسة عشر جنيهًا!)، وما زلت أحتفظ بعادة كتابة المذكرات اليومية.

عدنا إلى بيت الشباب الساعة التاسعة مساءً، وبعد دوش بارد وحيث إن الجو كان قد تحسن كثيرًا، جلسنا في صالون البيت أمام شباك مفتوح، وبدأنا القراءة في الكتب التي كنا نحملها معنا عن آثار مصر، وذلك استعدادًا لزيارة معبد الإلهة إيزيس على جزيرة (فيلا) صباح اليوم التالي بإذن الله.

كان مطلوبًا مني أن أقرأ الموضوع في كتاب بالإنجليزية اسمه المرشد الأزرق (بلو جايد)، وأن ألخص الموضوع كتابة في عدد من الصفحات. كنا نجلس هكذا هادئين في صالون بيت الشباب، عندما دخلت فجأة فتاة أوروبية، غالبًا إنجليزية، نظرت إليّ شزرًا، وخطفت الكتاب من يدي قائلة: (يا حرامي، حتى حقيبة يدي فتحتوها وسرقتوا منها الكتاب)! لم أرد عليها إطلاقًا، أخذت هي الكتاب ومشت، ذهلت تمامًا من توجيه تلك الإهانة إلى هكذا علنًا، ذهبت لتطمئن على أشيائها وعادت بعد دقيقتين لتعتذر قائلة إنها آسفة جدًا، فقد وجدت نسختها في حقيبتها لم تمس، إلا أنها كانت قد سرقت عدة مرات خلال الأيام الماضية أثناء إقامتها في بيت الشباب هذا، مما جعلها تتشكك في كل المصريين، ثم إنها مندهشة تمامًا أن تجد هذا الكتاب في يد شاب مصري، فإن المصريين لا يقرأون تاريخ بلادهم إطلاقًا حتى باللغة العربية، ناهيك عن قراءته باللغة الإنجليزية.

obeikandi.com

الأقصر

(١)

وصل القطار الساعة الثالثة صباحًا، بعد أن قطع المسافة من القاهرة فى خمس عشرة ساعة متأخرًا أربع ساعات فقط عن ميعاد وصوله!! بت الليلة فى لوكاندة المحطة، وهو مبنى من القرن التاسع عشر مليء بالأشباح!! فلم يغمض لى جفن حتى شروق الشمس عندما ذهبت إلى لوكاندة أخرى، لوكاندة آمون إلى الجهة الأخرى من ميدان المحطة، وهو المكان الذى كان مكتوبًا لى أن أبقى فيه حوالى ستة أشهر أى إلى أوائل مايو.

هذه المرة نمت باستغراق ولم أستيقظ إلا فى الثانية بعد الظهر. دوش سريع وحلاقة ذقن، وطبق فول بالبيض أسفل اللوكاندة، ثم تاكسى سرفيس إلى الكرنك حيث بقيت حتى غروب الشمس.

عدت مشيًا عن طريق الكورنيش، حوالى ثلاثة كيلومترات، إلى معبد الأقصر الذى يضاء ليلا، وبقيت فيه ساعة، وفجأة أصبحت فريسة التعاسة، والعلاج الناجح فى هذه الحالة هو زجاجة أو زجاجتان من البيرة المثلجة فى تراس الأولد ونتر بالاس، وهأنذا أشعر بالنشوة التامة عندما وصل عدد الزجاجات إلى أربع!!

وفى تلك اللحظة العبقرية بالذات، ويا محاسن الصدف – وأصلها ويا ما أحسن الصدف – مر أمامى صاحب مكتب سياحى يقع فى سور الونتر بالاس، وكان يعرفنى منذ مايو الماضى عندما عملت مع شركته كمرشد لغة فرنسية فى موسم أوبرا عايدة، هلل فرحًا قائلا: مش معقول لقد كنت أبحث يائسًا عن مرشد جيد لزبائن فى آى بى!

لقد أرسلك الله لى! اذهب فورًا بحقيبتك إلى مركب جولدن بوت، هناك كابينة محجوزة للمرشد، وهم سيقلعون فى اتجاه إسنا بعد ساعة.
وكانت هذه هى بداية موسم عمل جيد جدًا، حوالى ستة أشهر عمل شبه يومى بدون انقطاع، يا خسارة يا سياحة!!!

(٢)

كنت على أحد المراكب الصغيرة لشركة بيراميدز للسياحة، وكنا، أنا والمجموعة السياحية التابعة للشركة الفرنسية ريف فاكانس، قد قمنا بعمل زيارة معبدى الأقصر والكرنك فى الفترة الصباحية، ثم عدنا إلى المركب حيث جلستُ فى البار مع عدد من الزبائن.

بعد الغداء ذهبت إلى فندق الايتاب، حيث يعمل صديقى يسرى عازفًا للدرمز مع فرقة النايت كلوب الموسيقية. بقيت معه حتى ٩ م ميعاد عمل الفرقة، وعندما علم عازف الجيتار الباص بوجودى، طلب منى أن أحل محله تلك الليلة، فوافقت فورًا وصعدت معهم إلى المسرح، ولعبت معهم طوال السواريه.

وأثناء السهرة جاء بعض السياح الفرنسيين من زبائنى لحضور عرض الفرقة، وكانت من بينهم إيزابيل! عندما عدت الواحدة صباحًا إلى المركب ودخلت كابينتى، سمعت دقًا على باب الكابينة، فتحت الباب ووجدت إيزابيل واقفة، وفى يدها ورقة سلمتنى إياها، وانسحبت من أمامى فورًا!!!

بدأت أقرأ: (.....عيناك تدفئاننى أكثر مما تفعل شمس مصر، ابتسامتك تضيء لياليّ ، من أجلك سأقيم معبدًا للحب، وفيما بعد سأحنطك فيه حتى أحتفظ بك حتى آخر الزمان، أنت أيها الأبدى، أنت يا من تسود الكون، سأهبك قلبى وقالبى، روحى وجسدى، ....)!!!!

بقيت بعض الوقت محتارًا ماذا أفعل، وذلك لقلة ثقتى بنفسى، فقد اعتقدت أولا أنها لعبة أو تسلية أو مقلب!!

ولكن بعد ذلك تغلبت الأفكار الإيجابية على الأفكار السلبية، وقلت فى نفسى: (أخيرًا وبعد طول انتظار، جاءت فتاة من بلاد الفرنجا لتقول لى هذا الكلام).

كانت إيزابيل هى أول امرأة فى حياتى أقيم معها علاقة كاملة. بعد ذلك وخلال ثلاث سنوات كنت أحاول انتهاز كل الفرص المتاحة. عندما قابلت زوجتى وحكيت لها قالت: (خسارة أنك قد أضعت أجمل سنوات عمرك فى تلك البتولية المضحكة).

إلا أن الآراء تتفاوت، فعندما حكيت نفس الشيء لأحد جيرانى (سليم)، قال (يا بختك أنك استطعت أن تحافظ على عذريتك طوال تلك السنوات، وبالتالى استطعت أن تدخر كل طاقتك للدراسة والثقافة). وحتى الآن لم أصل إلى رأى قاطع فى هذه المسألة.

(٣)

عندما بدأت العمل فى مهنة الإرشاد السياحى سنة ١٩٨٥ كنا ألف مرشد، ويزيد عددنا حوالى ١٠٠ كل عام، أما الآن فقد أصبح عدد المرشدين يتعدى العشرة آلاف ويزيدون حوالى ٥٠٠ كل عام!! وبالتالى فإن قيمة المرشد تقل بالتدريج!!

أتذكر أنه فى أول مجموعة سياحية طويلة لى (من القاهرة إلى الأقصر والعودة) وكانت مع شركة سفنكس، أن جاءت سيارة الشركة تنقلنى إلى مطار القاهرة!! وفى الأقصر بالمثل جاءت سيارة الشركة لتنقلنى من المطار إلى المركب!! وعندما اكتشف مدير المركب أنه ليس لى كابينة خصص لى الجناح!! وكذلك كان لى مطلق الحرية فى ترتيب زيارات البرنامج بدون تدخل أى شخص....

أما الآن فإن المرشد المسكين يدفع من جيبه أجرة انتقالاته الداخلية، بل حتى فى بعض الأحيان يضطر إلى دفع ثمن تذكرة الطائرة من جيبه، ليستأنف العمل مع مجموعته فى الصعيد، بل وقد حدث كذلك أن اضطر المرشد إلى دفع ثمن إقامته، إما على المركب أو فى فنادق مدن الصعيد المختلفة، بما فى ذلك من تكاليف إضافية يدفعها المرشد مضطرًا، فى الوقت الذى أصبحت فيه أجرته اليومية الآن، أقل مما كانت عليه منذ عشرين عامًا!!! بالإضافة إلى ذلك أصبح لأشخاص عديدين حق التدخل فى عمل المرشد! فبسبب زيادة عدد المراكب من خمسين مركبًا سنة ١٩٨٥، إلى حوالى ثلاثمائة مركب الآن، وازدحام هويس إسنا فى الذهاب والإياب (أى فى صعود النيل وفى هبوطه)، أصبح لمدير المركب الحق فى أن يطلب من المرشد إنهاء زيارة البر الغربى (خمس مناطق: وادى ملوك – وادى ملكات – دير بحرى – أشراف – معبد هابو) فى ثلاث ساعات مثلا، وذلك لرغبته فى أن يكون أول من يعبر الهويس، بدلا من الانتظار عددًا من الساعات لا يعلمه إلا الله ... ثم إن هناك كذلك مشكلة الأمن، واضطرار السياح إلى اصطحاب سيارة شرطة فى كل تنقلاتهم (مثلا للذهاب إلى زيارة معبد دندرة)، وذلك مما يحد كثيرًا من حريتهم فى الحركة بسبب دواعٍ أمنية، وأصبح على المرشد ضرورة تبرير كل ذلك للسائح ؟؟؟!!!

obeikandi.com